مسامرة هدية الزائر لنادي الترقي بالجزائر

تأليف العلامة القاضي الحاج أحمد سكيرج

تحقيق ذ. محمد الراضي كنون

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله على إفضاله، وصلى الله على سيدنا محمد وأله.

أما بعد، فإني أيها السادة الذين ارتقوا من الترقي مراقي المجادة أعد نفسي معكم سعيدا بما ساقني إليه سائق التوفيق للحضور بناديكم الرفيع الذي ازدهر بكم، وشملت العناية الجميع، ولم يكن بحسباني أن أتجرأ على إلقاء كلمتي بين يديكم، مع أن المعارف الكافية لديكم، ولكن لحسن ظن من اقترحها علي أجبته إجابة راغب في جبر الخواطر، وإن كان في غنى عما لدي، وقد انشرح صدري بما شاهدته من إقبال الشبيبة الجزائرية على فنون الأدب وأهله، وانعطافهم نحو محبيهم بقلب وقالب، خصوصا من تقرب إليهم بأدنى سبب، أو كان من ذوي الفضل والنسب، فهم له محبون، وبالإحسان إليه مغبوطون، وذلك من كمال فضلهم، ولا يعرف الفضل لذي الفضل إلا ذووه.

ساداتي : إني قد كنت عزمت على التنصل من إلقاء خطابي في مجمعكم الذي أخذ فيه مني الدهش حظه، بما أتلوه من سطور الذكاء الذي تشعشعت أنواره فيكم، ولاحت على أسرة وجوه الحاضرين منكم بما ينبئ عن معلوماتكم التي تستوجب إطراق مثلي برأسه أمامكم خجلا، فإن منكم الأساتذة الأعلام، ومنكم النوابغ الذين لهم في مراقي المعارف والعلوم نشرت الأعلام، ولكن لاعتمادي على ما لديكم من سلامة الصدور سأعرض عليكم من بضاعتي المزجاة ما أعده من السوانح التي لم أستعد لصيدها، فجاءت عفوا من غير تأنق في الخطاب، فإن صادفت عندكم قبولا فهو غاية المقصود، وإلا فلتعدوها من سقط المتاع.

واعذروني لقد حيرني المقترح علي في إلقاء هذه المسامرة حين خيرني في الموضوع الذي أطرق بابه، في هذا الموضع ليوافق مشربكم الذي استحلي شرابه، وقد تواردت الأوهام علي وصرت في حيرتي على حد ما قيل، وهي حقيقة تتنزل علي :

تكاثرت الضباء على خداش فما يدري خداش ما يصيد

ثم سنح لي أن أدير عليكم كأسي في محادثتكم عن مسقط رأسي، فإن نفس كل شخص ميالة بالطبع إلى وطنه، وحب الوطن من الإيمان.

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

ولست بمكثر عليكم في إطرائي لمدينة فاس التي اخترت أن أجعلها موضوع مقالتي هذه، فإنها أشهر من أن أصفها لكم، ولكن أستلفت نظركم منذ أسست إلى الآن، وما صارت عليه من غير تطويل، فلقد أسسها المولى أبو العلاء إدريس(1) بن إدريس في موضعها الذي اختار موقعه بما شاهده من كثرة المياه النابعة حولها، ووادي الجواهر الذي تحذر بين شعابها، فكان موقعها في قلوب من معه في غاية الاستحسان،

(1) سبق التعريف به في ج 1 ص 194 من هذا المؤلف.

وقد اختلفت المشارب بعد ذلك فيها على حساب الأذواق، وأنا أميل إلى مدح وطني مستحسنا ما قاله أبو الفضل ابن النحوي(2) فيها :

يا فاس منك جميع الحسن مسترق وساكنوك أهنيهم بما رزقوا
هذا نسيمك أم روح لراحتنا وماؤك السلسل الصافي أم الورق
أرض تخللها الأنهار داخلها حتى المجالس والأسواق والطرق(3)

وكان اختطاطها غرة ربيع النبوي عام 192هـ، وهو ما رمز عليه من لم يوافقه مشربها بلفظة (قبض) لما يعتري ساكنها من الإنقباض، حتى صارت تسمى بسهب الحزن لكثرة الأحزان التي تعتري قاطنها، وفي الحقيقة إنها السهب الحزن، بمعنى السهب السهل، أما القبض والحزن الذي يعتري من لم يذق حلاوة مشربها فموجبه تباعد الغرباء عن أوطانهم فيها من أهل القيروان والأندلس، ممن كان مع مؤسسها، ثم من حل فيها ممن كانوا في شوق عظيم إلى أوطانهم التي لم يروا أحسن منها في نظرهم ولو كانوا في النعيم المقيم.

ولقد كان المقصود الأهم للمولى إدريس تأييد المشروع الذي كان والده قائما به من نشر دعوة الإسلام في الآفاق، والإستعانة على ذلك بالسعي في جلب العلماء من بلاد القيروان والأندلس، وتم الأمر له بزرع حب الحب في القلوب بواسطتهم، وبأخلاقه التي سلب بها النفوس، وطاطأت له بها الرؤوس، وكان الغالب في سياسته استعمال الرفق بدلا عن استعمال الشدة، وبعده تطورت سيرة الملوك في أطوار وأدوار، ولم يزل الإعتناء منهم بالعلماء حتى بلغ العلم الشأو الذي وقف موقف التمام، ثم رجع القهقري على حد ما قيل :

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

ولقد كانت مدينة فاس للناس منبع العلم حتى كانت تعتبر كمدرسة عمومية يكفي في عالمية الشخص أن ينسب لها، بما لا ينازع فيه إلا من لا يعترف بالحق لأهله، والفضل في ذلك لأهل القيروان وأهل الأندلس وبعض الحجازيين الواردين من أقطارهم في أول إنشاء دولة الأدارسة وبعد ذلك، وكان المسجد المقصود لإلقاء العلوم وتلقيها مسجد القرويين ومسجد الأندلس المعروفين بهذه المدينة.

---

(2) يوسف بن محمد بن يوسف التوزري التلمساني المعروف بابن النحوي ناظم المنفرجة التي مطلعها :

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

سكن سجلماسة مدة غير قصيرة، ثم انتقل لفاس، ثم لقلعة حماد قرب مدينة بجاية بالقطر الجزائري، وبها توفي عام 513هـ ، صحب أبا الحسن علي اللخمي، وأخذ عن أبي الفضل أبي عبد ا محمد بن علي المعروف بابن الرمامة وأبي عبد ا محمد المازري وأبي زكرياء الشقراطيسي وعبد الجليل الربعي وغيرهم. وكان رحمه ا ممن انتصر لعدم إحراق كتب الإمام الغزالي، وذلك لما افتى فقهاء المغرب بإحراقها في عهد الدولة المرابطية. أنظر ترجمته في جذوة الإقتباس لابن القاضي ص 552 رقم الترجمة 643 وفي التشوف لابن الزيات ص 95 رقم الترجمة 9 وفي شجرة النور الزكية لمخلوف ص 126 رقم الترجمة 365 وفي نيل الإبتهاج للتنبكتي ص 349 وفي الأعلام للزركلي ج 8 ص 247.

(3) أنظر جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 553.

وكان تأسيس القرويين في فاتح رمضان المعظم عام 245هـ، بتوفيق الله لأم البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيروانية(4)، وبعدها وقع تأسيس مسجد الأندلس(5)، ولكن قد اشتهر جامع القرويين بما لم يشتهر به غيره من مساجد فاس، من تحصيل الفتح في العلوم لمن قصد الأخذ فيه عن المعتنين بالتعليم فيه من قديم، وكان مقصودا للناس من سائر الأقطار، وقد تقلب المعلمون فيه في أطوار، ودار دولب التعليم فيه في أدوار، على حسب كل دولة وشغفها بالعلم وأهله، حتى تعددت المدارس والمساجد، واتسعت جامعة القرويين مع اتساع المدينة لكل شارد ووارد، وكان الغالب فيمن قصد كلية القرويين تحصيل الدراية، وهي أهم الأمور دون الرواية، إلا ما قل من أفراد الأعلام ممن اقتبسوا من مشكاة المشارقة، فجمعوا بين الدراية في العلوم، والرواية عن الخصوص والعموم، وأكثر ما كان يتعاطاه طلبة العلم بها علوم الدين أصولا وفروعا، ثم انخرط في طبقاتهم طلبة الأدب وفنونه، واستفحل العلم فيها على اختلاف أنواعه بالقادمين إليها وإلى الإيالة المغربية من جالية الأندلس، وكثر إحداث المدارس والمدرسين في المساجد التي كثر تعدادها بما يناهز أربع مائة مسجد، وجلها عامر في غالب الأوقات بالطلبة.

وغالب العلوم التي كانت تقرأ بالقرويين من العلوم المتداولة بها علم التفسير والحديث وأصول الدين وفروعه مما يتعلق بالعبادات والأحكام الشرعية، أما غير هذه الفنون فكان يتداول في المساجد الصغيرة خارج القرويين، فكانت علوم الأدب باختلاف أنواعها من بيان وقسمة ونحو، وما هو منوط به من تصريف واشتقاق وحفظ اللغة باصطلاحها وغير ذلك كله مما يدرس خارجها، مثل العروض وقرض الشعر ونحو ذلك من حساب، وما يندرج تحته من هيئة ومساحة وتنجيم وغير ذلك من العلوم الممدوحة والمذمومة شرعا، فكان الناس في شغف عظيم في اقتناء كل علم وفن، بحيث كان ذلك منهم في أهمية كبرى من أن ينسب لهم الجهل بشيء،

(4) فاطمة بنت محمد بن عبد ا الفهرية القيروانية المعروفة بأم البنين المنشئة الأولى لجامع القرويين بفاس، وكان ذلك في عهد سيدي يحيى بن محمد بن إدريس الأزهر، وحفرت فيه بئرا لا تزال إلى الآن، وكان طول المسجد من حائطه الغربي إلى الحائط الشرقي 35 مترا، والمكان الذي بني فيه المسجد كان فدانا لعمل الخضر، وفيه أشجار لرجل من قبيلة هوارة، كان قد حاز ذلك أبوه بوجه جائز صحيح حين أسست المدينة، فاشترته منه فاطمة أم البنين، ودفعت ثمنه من مالها الحاصل لها بالميراث من والدها محمد بن عبد ا الفهري وكانت بداية العمل في حفر أساس هذا الجامع العظيم عند فاتح شهر رمضان عام 245هـ موافق 30 نونبر 859م، انظر جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 52 وفي الأنيس المطرب القرطاس لابن أبي زرع ص 45 وفي الأعلام للزركلي ج 5 ص 132.

(5) مسجد الأندلس، ابتدأ في بنائه عام 245هـ على يد السيدة مريم بنت محمد بن عبد ا الفهري (شقيقة فاطمة أم البنين) وذلك بعد أن اشترت أرضه بوجه صحيح، وأنفقت في ذلك كله من مالها الموروث عن أبيها، وسمي بجامع الأندلس نظرا لبنائه بعدوة أهل الأندلس، وهي الناحية الشرقية من مدينة فاس، وقيل لأن أهل الأندلس الوافدين على فاس ساعدوا في بنائه وإعداده فسمي باسمهم، أنظر جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 78.

وقد أشرت في نظمي المسمى بنفع العموم إلى نحو خمسة وأربعين علما(6)، مما هو محصل من العلوم التي كانت تدرس بالقرويين وغيرها، ومطلعه :

خذ العلوم وإن كسلت عن عمل   فالعلم من أكمل الأوصاف في الرجل
لا يستوي عالم وجاهل أبـــدا   ولو بلا عمل أحرى مع الـعـمـــل

إلى آخره في نحو 200 بيت، ثم تطور التعليم في أطوار، وصار العلم في نقص بانقراض العلماء وبرودة همم الناس في تلقي العلوم الرقيقة، وهي التي كانت تقرأ خارج القرويين، وظهر سر الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم : إن العلم لا ينتزع انتزاعا، وإنما ينتزع بقبض العلماء(7)، فأما العلوم التي قل العارفون بها أو ذهبت رأسا فهي على قسمين : علوم نافعة كالطب(8) وما انضاف إليه، ولم يبق منه إلا مجرد تجاريب عند العجائز ونحوهن ممن يتعاطاه على حسب التجربة، حتى جاءت الدولة الفرنساوية فأنشأت المستشفيات على الطراز الجديد، بمديد مساعدة أميرنا مولاي يوسف أطال الله بقاءه.

وقد أحيا الله به علم التفسير لكتاب الله العزيز، الذي انقطع منذ زمان بما كان راسخا في الأذهان من التطير من قراءته، بعدم وجود كفاءة الذين يشتغلون به، وخشية التجاسر عليه بالقول بالرأي، ووضع الآيات في غير موضعها، وقد زالت هذه الفكرة، ولكن انفتح الباب في وجه العامة بحضورهم في مجالس بعض المفسرين والمحدثين، فصدع جلهم بالتمذهب بما يفهمونه، وكادت البلوى أن تعم بادعاء الإجتهاد في حق جل من خاض في التفسير والحديث منهم، ونشأت أفكار الشبيبة العصرية على هذه الحالة، فاعتقد جلهم بأن من خالف ما يفهمون فقد خالف الكتاب والسنة، وعدوه مبتدعا ولو تقلد بأحد المذاهب الأربعة، وهذا حال غالب الراضين عن أنفسهم، المدعين للتحصيل، بإجمال وتفصيل، مع أنه قيل :

قل للذي يدعي في العلم معرفة   علمت شيئا وغابت عنك أشياء

وقد صار حزب ادعاء الإجتهاد يتقوى تبعا لمن تظاهر به في المشرق في هذا العصر، والله غالب على أمره، وأما العلوم الغير النافعة فهي علوم السيميا بأنواعها ونحوها، وجلها لا يخوض فيه إلا الأفاردة من الطلبة الذين يحتالون على الناس في الإستيلاء على عقولهم ليتوصلوا لما بأيديهم، مثل تعاطي علم النار المعبر عنه بعلم الإكسير والتدبير والكيمياء، وقد كان للناس ولوع

---

(6) أنظر التعريف بهذا المؤلف في ج 1 ص 85 من هذا المؤلف.

(7) أنظر صحيح الإمام البخاري كتاب العلم رقم الحديث 100.

(8) اعتنى العلماء المغاربة بعلم الطب منذ عهد بعيد، ولهم فيه تصانيف كثيرة، وممن برع فيه منهم العلامة الطبيب أبو محمد عبد الوهاب أدراق، والفقيه أبو القاسم الفشتالي المعروف بالغول، والعلامة أبو القاسم الوزير صاحب كتاب المفردات، والعلامة سيدي محمد بن سعيد المرغيثي، والفقيه بلا بن عزوز المراكشي، والعلامة سيدي عبد القادر بن شقرون، وغيرهم.

به من قديم، وألفوا فيه كتبا كثيرة، وأكثر من ألف فيه جابر بن حيان(9)، وقد أحسن بعضهم فيما كتبه على بعض تآليفه من قوله :

هذا الذي بعلومه	عز الأوائل والأواخر
ما هو إلا كاسر	كذب الذي سماه جابر

وكثير ممن ولعوا بهذا الفن ضاعت أموالهم في التجاريب، ووقعوا فيما لا تحمد عقباه عند البعيد والقريب، وصدق عليهم قول بعض العلماء :

قد نكس الرأس أهل الكيميا خجلا	وقطروا أدمعا من بعدما سهـــــروا
إن طالعوا كتبا للدرس بينــهـــــم	صاروا ملوكا وإن هم جربوا افتقروا
تعلقوا بحبال الشمس من طمــــع	وكم فتى منهم قد غره القمــــــــــر

فكان الخائض في هذا الفن كطالب الكنوز وفتحها بالعزائم والبخور، وذلك من تضييع العمر في لا طائل، وقد أجاد القائل :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا	لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحدث أقوام بكونهـمـــــــا	وما أظنهما كانا ولا وقــعــــا(10)

وقد نصح بعض العارفين الناس بقوله بعد ما خاض في هذا الفن وعرف اصطلاح أهله ونصه :

علوم الكيمياء لدي أجـــلا	من الشمس المنيرة للبصير
إذا ما شئت تصعيدا فصعد	إلى مولاك أنفاس الزفيـــر
وقطر أدمع العينين حتـــى	يبين لك الصفاء من الضمير
وقل يا جابرا للكسر فاجبر	بفضلك سيدي قلب الكسيــر
هناك تنال كنزا ليس يفنـى	وتحمد فيه عاقبة الأمــــور

وهذا العلم لا اعتماد عليه في قلب الحديد والرصاص ونحوهما إلى الفضة والذهب حقيقة، وإلا فالصبغ بلونهما غير بعيد، وقد ظهرت الكيمياء الجديدة بمظهر باهر لمن تعاطاها في المدارس الحديثة لتعليم هذا الفن من غير غش ولا تدليس، ولا شك أن الخائض في فن الكيمياء القديم على خطر عظيم في دينه ودنياه.

---

(9) انظر التعريف به في ج 1 ص 386 من هذا المؤلف.

(10) صنف بعض الفقهاء المغاربة في علم الكيمياء كتبا كثيرة استولت على عقول معظم الباحثين في ذلك الوقت، ونظرا لهذا فقد أثرت في سلوك الطلبة الدارسين، وساعدت في تهافتهم ورائها على حساب العلوم الأخرى، وكان هذا سببا واضحا في إقدام بعض العلماء على التحذير من هذا العلم والتصنيف في موضوع انتقاده، ومن بين الكتب التي ألفت في ذلك : كشف أسرار المحتالين الأشقياء الذين يزعمون علم الكيمياء، للمؤرخ أبي القاسم الزياني، ورسالة إبطال الكيمياء للعلامة المدني بن جلون وغيرهم.

وقد خرق سياج المروءة بتعاطي الغش الذي يستوجب به العقوبة عاجلا وآجلا. وقد قال (ﷺ) : من غشنا فليس منا(11).

ومثل هذا الفن الخوض في علم التصريف بالأوفاق والحروف والأسماء والآيات(12)، والتعلق بخواص ذلك في استخدام الجن وجلب المنافع ودفع المضار ونحوها، فهي من قبيل الفنون التي تستولي على ضعفاء العقول، ويصل بها الأفاردة المحتالون لنيل أغراضهم منهم، وقد جعل بعض العلماء مثل هذا الفن من قبيل الشر الذي يتعين معرفته لاتقاء مفسدة مدعيه، على حد ما قيل :

عرفت الشر لا للشر	لكن لتوقـيــــه
ومن لا يعرف الشر	من الناس يقع فيه

وبعضهم جعله من قبيل السحر، ولكن عند العارفين ليس من قبيل السحر، فإن السحر حقيقته منافية لذلك، وقد اندرجت تحت السحر فنون من السيميا التي نهى الشرع عن الخوض فيها، مثل علم أحكام النجوم وخواص اقتراناتها، وعلم النرينجات الذي هو خواص أعضاء الآدمي حيا وميتا، وعلم الطلاسم التي يلاحظ فيها التجرد عن الديانة في تحصيل نتائجها، ونحو ذلك، فقد كان بفاس بعض من يحسن ذلك، ويوجد إلى الآن بعض الجزئيات عند بعض العجائز المتمردات، وكذلك عند بعض الخائضين في الاستطلاع على المغيبات بالتروحن، وتعاطي أسبابه باستحضار الأرواح والإستنزالات التي تضاهي التنويم المغناطيسي بكيفية لا يحتاج فيها إلى كبير مشقة، سوى الخوض في ذلك مع متعاطيه حتى يتعلم الطريقة التي يسلكها في التصرف به، وهذا ونحوه مما لا يتجاهر به خوفا من سلطة المخزن، وربما تظاهر به من ليس من أهله، ويتخذه وسيلة لأكل أموال البسطاء، وليس من العلم في شيء، والعاقل من الناس المتدينين عندنا بفاس لا يميل إلى التصدق بمن يتعاطى هذه الفنون المذمومة، ولا يقول بها ولا يعتمد عليها في شيء، ولقد أكثرنا عليكم أيها السادة في ذكر ما لا طائل تحته، مع أن العلوم النافعة كثيرة ولا سبيل إلى الخوض في جميعها، ولقد أحسن القائل في قوله :

لن يجمع العلم جميعا أحد	لا ولو مارسه ألف سنــه
إنما العلم عميق بحــــــره	فخذوا من كل فن أحسنه

ولا فائدة في العلم بلا عمل إلا مجرد الخروج عن حيز ظلمات الجهل، ولكن قد يستفيد منه من يعمل به، أما العامل على خلاف ما يعلم فهو كما قيل :

---

(11) أنظر الجامع الصغير للسيوطي ج 2 ص 176 وعزاه فيه للترمذي.

(12) ألف الفقهاء المغاربة في هذا الفن كتبا كثيرة من جملتها : الإغراق في علم أسرار الأوفاق، للعلامة سيدي الحسن اليوسي، وتحفة الأسير في علم التكسير، لنفس العلامة، والجوهر المنظوم في علم النجوم، لنفس العلامة، والكامل في الإستغناء عن الجداول، لنفس العلامة، وشرح سلك اللآلي في المخمس الخالي، للقاسم بن القاضي، وبحر الوقوف على أسرار الحروف، لابن عزوز المراكشي، وإثمد البصائر في معرفة أحكام المظاهر، لنفس المؤلف، وحل المعقود وعقد المحلول، له كذلك، وتحفة الإخوان والأولياء في صنعة السيمياء، للزياني، وغيرهم.

لو كنت منتفعا بعلمك مع مواصلة الكبائر

ما ضر أكل السم ذا علم بأن السم صائر

وأقبح العلوم الفلسفة المذمومة شرعا، فإن تعلمها مضر بدين متعاطيها، لتحكيم عقله في أحكام الدين، وتقديم ما يظهر له على ما ظهر في نظر الشرع في حلة القبول، وقد أجاد من قال :

شر العلوم إذا نظرت إليه علم الفلسفه
لا خير فيما الفل أوله وآخره سفه

وأحسن الفلسفة ما أرشد إلى تحقيق الديانة وما انبنت عليه، كالنظر في كون اللائق بالعبد أن يطيع مولاه بأجر وبلا أجر، فإن العبودية تقضي عليه بذلك، والعقل يؤيده، ومن هذا الباب قول من قال وقد أصاب :

لو لم تكن نار ولا جنة ولا نعيم لا ولا موعده
أليس بالحق على العبد أن يشكر بالطاعة من أوجده

ثم إنا ما ذكرناه لكم إنما هو بحسب ما تذكرناه عند إلقاء خطابي هذا بين أيديكم من هذه العلوم وحال متعاطيها بالقرويين وغيرها قديما، وقد ارتقى التعليم في مدارج التحقيق في زماننا هذا. وعمرت المدارس بالمتعلمين للعلوم وللفنون، ولازالت في تقدم تام، أما الصنائع والمصانع فقد كانت بفاس من عهد جالية الأندلس في إتقان وإبداع وعجيب استنباط واختراع، مما تمت به زخرفة الحضارة، خصوصا صنعة النجارة والحدادة والبناء، وصنعة الزليج ونقش الجبص والتزويق، فقد بلغ فيها الصناع إلى درجة تبهر الناظرين، ولازالت من ذلك الاثار البديعة في مدارس طلبة العلم عندنا مثل مدرسة أبي عنان بالطالعة، ومدرسة العطارين وغيرهما، مما يدل على ضخامة الملوك الذين أمروا بإنشاء ذلك ومهارة الصناع في عصرهم(13).

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ثم سرى الضعف والنقص في هذه الصنائع حتى كادت أن تضمحل بذهاب العارفين بها، مع برودة الهمم في إحياء ما اندرس من الآثار منها، ولم يكن اعتناء من غالب الناس في المحافظة على ما بقي منها حتى قيض الله لإحيائها رجال البحث عن الفنون الجميلة، من رجال العلم العصري ورجال التمدن والحضارة، فحصل البحث عن الآثار المنطمسة والعارفين بالصنائع القديمة، وفتحت لذلك مصانع ومدارس، فهاهي الآن في التقدم، مع ولوع الناس في التعليم والتعلم، ولولا نفث روح الإهتمام بإحيائها من الحكومة لاندثرت.

---

(13) للملوك المغاربة منذ القديم اعتناء واهتمام كبير بإقامة المدارس العلمية، والمحافظة عليها، ورعاية شؤونها، وقد أنفقت في هذا الصدد النبيل أموال باهضة، ومن هذا القبيل ما يحكى عن السلطان أبي الحسن المريني في بناء المدرسة الجديدة بمكناس، ومفاد ذلك أنه لما رفع إليه ما صرف في بنائها استغلى ذلك، فلما وقف عليها وأعجبته بجمالها وفن عمارتها من نقش وزخرفة أخذ ورقة تكاليفها المالية ورمى بها في صهريج المدرسة المذكورة وقال :

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ليس لما تستحسن العين ثمن

وقد ظهر للعيان حسن هذه الصنائع التي هي على نسق الطراز الأندلسي المشوب بالذوق الفاسي في جل ما تحلى به المسجد الباريزي ومعهده من حلل الرونق والجمال البديع، والفضل كل الفضل في ذلك لرئيس جمعية أوقاف الحرمين الشريفين، رئيس التشريفات المولوية الوزير الشرفي المفوض سيدي الحاج عبد القادر ابن غبريط، زاد الله في معناه، فله الفضل في اختيار الصناع الذين لهم النبوغ التام في صنعة الزليج ونقش الخشب والجبص، وقد جاء بهجة للناظرين، ودليل ذلك المشاهدة :

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما	قد حدثوك فما راء كمن سمعا

ولا أغالي إذا قلت أن هذا المظهر الذي ظهر فيه المسجد المذكور ومتعلقاته لا نظير له في الوجود من قصور الملوك في الأندلس وغيرها، وما أرى ينازع في هذه الفكرة إلا جاحد حسود، أو جاهل في حيز الجماد معدود، وهاهو الآن المسجد مع متعلقاته، أبوابه مفتوحة، وما على الناس إلا أن يزوروه، ويروا جنة الدنيا كيف شيد فيها ما عد من البناءات الباهرة الباهضة، وقد توجت دائرة الزليج بصحن المسجد المذكور بقصيدة وأبيات قد أنشأتها باقتراح رئيس جمعيتنا المذكور، ولم يبق على حافظتي سوى بيتين أنشأتهما لينقشا على باب الحمام هناك وهما :

إن هذا الحمام يشفي السقيما	وبه يشتفي الذي يستقي ما
فارو من مائه صحيح بخار	وانتهج منهجا له مستقيما

أما القصيدة فهي تزيد على السبعين بيتا، وقد حفظت بالنقش هناك بالخط الأندلسي المجوهر، وستنشر عما قريب على أعمدة السعادة الغراء، أو على أعمدة النجاح الأغر، مع الأبيات المنقوشة داخلا وخارجا، وهي من إنشائي(14)، وذلك من تخليد الذكر لأهل الأدب والثناء عليهم بألسنة البيان، فعليكم أيها السادة بالأدب والتضلع من مشاربه العذبة، ولا تكتفوا بما حصلتم عليه من المعارف، فإن القناعة من الله حرمان.

ولنشكر الدولة التي مدت لنا يد المساعدة على إحياء مثل هذه الصنائع التي لازالت في التحسين المضاهي للطراز القديم، الذي كاد أن يضمحل إجمالا وتفصيلا، وكذلك غير هذه الصنائع التي كانت انقرضت عندنا بفاس بانقراض العارفين بها، مثل تربية دود الحرير وغزله، فقد كانت قديما من الصنائع التي لها مدخولات ذات أهمية، وكان الحرير الفاسي من أحسن الأنواع التي تجلب من مصانع الأجانب، حتى دخل الفشل بالإكتفاء بما يرد من ذلك بواسطة تجار فاس الذين تسببوا في انحلال العزائم في الإعتناء بالحرير ومنسوجاته، وعم العامة الكسل، فصارت هذه الصناعة في حيز الإهمال حتى ذهب العارفون بها.

---

(14) جميع الأشعار والأبيات المنقوشة بالجامع الكبير بباريس هي من قريض العلامة الحاج أحمد سكيرج، وقد تعرضت لذكر جميع هذه الأشعار في كتابنا : مجموع دواوين العلامة سكيرج، ومن المعروف أن الجامع الكبير بباريس قد دشن في صيف عام 1926م، وحضر لتدشينه عدد كبير من الأعيان، وفي مقدمتهم السلطان مولانا يوسف رحمه ا ، وكان العلامة سكيرج هو الذي ألقى على مسامع الحاضرين أول خطبة جمعية بالمسجد المذكور، أنظر ج 1 ص 77-83 من هذا التأليف.

وقد حصل في هذه الأزمنة الأخيرة الولوع بإحيائها بفضل همة ذوي الإصلاح من رجال الحكومة الساهرين في جلب المنافع بإحياء الصنائع، وعهدي بقومنا من أهل فاس قد حصلوا على النتائج الحسنة من إحرازهم من رئيس قسم إحياء الفنون الجميلة والصنائع تمام المساعدة بإعطائهم الإرشادات اللازمة في تربية دود الحرير، وإعطاءهم في الإبان المناسب القدر الكافي من الزريعة التي ينشأ عنها دود الحرير، مع حصة من أوراق التوت الذي يطعم لهذا الحيوان الحريري، وقد وقع الاعتناء بغرس الشجر. وحصلت نتائج كبرى من هذه الصناعة، ولازالت في التقدم في أطوارها، ولربما يقع الإكتفاء بالحرير البلدي الفاسي عن غيره مستقبلا إذا دام الناس في اجتهادهم في إحياء هذه الصناعة.

وهكذا غيرها من الصنائع فقد صارت تتقدم شيئا فشيئا بسرعة مناسبة للعصر الحاضر، بمزاحمة المعمرين وغيرهم في استعمال آلات الحرث والدراس على الطراز الجديد، بفضل التعليم الذي نشأت المدارس لأجله بفاس وغيرها، مما يحق دوام الشكر للدولة الساعية في ترقي الإيالة الشريفة، وقد اعترف الناس بفضل مزية العلوم العصرية، وصاروا يغرفون من بحار معارف رجال التعليم ما عم نفعه في الحاضرة والبادية.

وإن أهم الأمور، التي تشفي الصدور، هو السعي التام في ارتباط جميع القلوب بعضها ببعض، والنظر فيما يوصل إلى رفع المضرات الناشئة عن سوء المفاهمة الحاصل بين العامة والخاصة، وذلك لا يتم إلا بالإرشاد إلى العلم والتعليم، حتى يعم العلم ويضمحل الجهل، ولا سبيل إلى بث روح المعرفة وإنباتها في روح طبقات الناس على اختلاف أنواعهم إلا بجلب النفوس بزرع الحب لمن لهم السيطرة عليها، وهم شيوخ الزوايا ومن في شاكلتهم من مستحوذ على تلاميذ أو خدام، فإن الإستعانة بهم في نشر العلم والدعوة إلى التعلم والتعليم عائدة بالفائدة التي لا يجحدها عاقل(15).

ومادام دعاة الإصلاح لم يصافحوا شيوخ الزوايا بأيدي الصلح، مع المسارعة لإصلاح ذات البين بينهم فلا طمع للترقي والتوقي من أضرار الجهل، فإن العامة لا يردهم عن حسن اعتقادهم في الشيوخ أحد، وكل من حام حول الإعتراض على أحد منهم فهو عندهم ملحوظ بعين السخط طول الأبد،

(15) كعادة العلامة سكيرج في جميع تدخلاته ومسامراته لا يختم أيا منها إلا بعد التطرق لمشاكل الساعة، ومن أهمها وقتذاك النزاع والنفور المتواصل بين شيوخ الطرق الصوفية ومقدميها من جهة، والمسمين أنفسهم بدعاة الإصلاح من جهة ثانية، وكان رحمه ا يرى أن مثل هذا النزاع لا مبرر له ولا يخدم الأمة في شيء، بل هو لفائدة خصوم الإسلام ومن مخططات المصالح الاستعمارية.

وقد حصل من التفرقة بين الجماعات بموجب الإنكار على أهل الطرق ما تراكم من أجله ظلمات بعضها فوق بعض فوق الأفق، فكيف يسمع مريد في طريقة قيد نفسه بحبلها طعن من طعن فيها، مع كونه في حبها متفان، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : حبك للشيء يعمي ويصم(16).

ساداتي : إن غالب الإنتقادات في كل شيء لا تصدر إلا عن غرض شخصي، يتحقق بهذا من نظر بعين الإنصاف إلى موجب الإنتقادات المرة بعد المرة، ومادامت الأغراض الشخصية تقود أهلها إلى التحصيل عليها إلا والناس في انحطاط إلى مهاوي التأخر، لا تقدم لهم فيما فاتهم به غيرهم في مراقي الترقي الذي تتشوف إليه النفوس وتتشوف للحصول عليه، وإن الأغراض الشخصية لحاجز حصين بين الترقي وطالبيه، وأقل الأغراض التشوف إلى التصدر بغير استحقاق، وما من أحد أحد رضي عن نفسه إلا وسولت له طلب ما هو بعيد عنه، ظنا منه أنه هو المستحق لما يتشوف إليه من الترؤس ونحوه، سيان في هذا من خاض في العلوم الرسمية، أو كان ذا مال يبخل به، أو ينفقه في تحصيله على السيطرة على ذوي المراتب العلمية، وإن للإنسان بماله لعلوا في غلو يريد به التقدم على غيره، ولو منعه من خيره، بمقتضى : "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"(17)، كما أن العلم الرسمي يطغى بصاحبه الراضي عن نفسه، فلا يرى أمامه من يرضى به إمامه، ولربما رمى بنفسه في التداخل فيما لا تحمد عقباه، وجنى على نفسه وقومه ما فيه رداهم ورداه، وذلك دأب كل من تتبع هواه.

ساداتي : إن ناديا مثل ناديكم هذا لخليق أن يصدع فيه زائره بالحقيقة من غير مداخل في الفضول، وحسب العالم الموفق أن يشير بلسان النصح للعموم أن يقبل الناس على التعلم للعلم وتعليم الصنائع التي تعود بالمنفعة على وطنهم العزيز. والحكيم من أحكم الأشياء بعد سلوكه على نهجه القويم حتى حصل على الحكمة ووضعها في موضعها عملا بما ورد : لا تمنحوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوا أهلها منها فتظلموهم. فمراعاة القابلية في المكان والزمان تعد من نفس حكمة الحكيم. ولقد أحسن الإمام الشافعي رضي الله عنه في قوله :

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي	ولا أنثر الدر النفيس على الغنم
وإن يسر الله الكريـــــم بفضلـــــه	وصادفت أهلا للعلوم وللحكـــم
بثثت معيدا واستفدت ودادهـــــــم	وإلا فمخزون لدي ومكتتـــــــم
فمن منح الجهال علما أضاعـــــه	ومن منع المستوجبين فقد ظلـم

والعاقل من يجتنب ما أمكنه ما تتطرق إليه الألسنة برميه بسهام الظنون، ورجمه بالغيب بما يستهون دونه ريب المنون، فلا يسقي غيره بما لا يشربه، لأنه لا محالة سيتجرع ما سقاه أحب أم كره، وقد قيل :

---

(16) أنظر كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق للعلامة عبد الرؤوف المناوي، بهامش الجامع الصغير للسيوطي، ج 1 ص 117، وعزاه فيه لأحمد في المسند.

(17) سورة العلق، الآية : 7.

أنت بما قد سقيت شارب | من رائق كان أو كدر
سهمك للغير فيك صائب | مالك عن نصله مفر

حتى قال :
ثمار ما قد غرست تجني | وهذه عادة الزمـــان
خذ الحديث الصحيح عني | كما يدين الفتى يدان

وقال شاعر من العرب :
ومن يحفرن بيرا يريد بها أخـــــا | ففيها لعمر الله من دونه يـقـــع
كذاك الذي يبغي على الناس ظالما | تصبه على رغم عواقب ماصنع

ولهذا لا يكون المسلم مسلما حتى يكف أذاه عن غيره بمقتضى : لا يومن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، وبهذا يحصل الإصلاح، ويتم في سائر مساعي النجاح، ولا يخفى عنكم أن المصائب الجمة التي تتخبط فيها كل أمة منشؤها الجهل، وإن الجهل لمانع من التقدم والترقي، وهو أقوى باعث على الشقاق والشقاء، قاعد بقومه على جرف هار لا تقوم لهم قائمة، ماداموا لم يتداركوا الخطر المحدق بهم بالإنكباب على التعليم والإرشاد إليه في الحواضر والبوادي، مع استعمال الرفق واللين في بيان الصواب والخطأ، وصرف همة الأغنياء في إعانة الضعفاء، وصرف أموالهم بتأسيس الجمعيات الخيرية التي تتكفل بنفقات اليتامى وأبناء الفقراء، ليتأتى لهم الإنكباب على تحصيل الدروس العلمية ومعرفة الصنائع التي تعود عليهم وعلى شعبهم بالخير العميم، وذلك من واجب الأخوة الإنسانية، فأحرى أخوة الدين بين المتدينين.

ولا يخفى عنكم أيضا أن الروابط الإجتماعية التي بها تربط القلوب، وتتم بها المقاصد في كشف الكروب، وتحصل بها السعادة من ثلاثة أمور : رابطة قومية، ورابطة وطنية، ورابطة دينية، وهذه الرابطة الأخيرة عند المومنين هي السبب الوحيد في سعادة الدنيا والآخرة، وهي أقوى الروابط وأتمها نفعا في الهيئة الإجتماعية، لانفعال النفوس بها مع الميلان الكلي بالقلب والقالب بين المتدينين، رغم تباعد أقطارهم واختلاف أنسابهم، وتباين مقاصدهم وتنوع لغاتهم، فهم على كل حال إخوة في الدين، وأما الرابطة القومية والوطنية فقد تزول بسوء حال أو انتقال، والمسلم الحقيقي يتعين في حقه أن يكون مسلما دينا، لا مسلما وطنيا، ويبرهن على دينه النقي بالتباعد عما نهاه الشرع عنه، فإن الشارع حكيم، وما نهى عن شيء إلا وكان ذلك الشيء مما لا خير فيه ويعود بالوبال على فاعله.

إخواني : إن التعصب الوطني قد يفضي بصاحبه إلى رفض الدين، ويقضي بهدم بعض القواعد المشيدة على أساس التقوى والحق المبين، على أن الوطن وإن كان بالطبع محبوبا فينبغي أن يكون حبه متابعا للحق من غير تعصب في الدين أيضا، ولست أدعو إلى بغض الوطن الذي لم تنتهك فيه حرمة الدين، فديننا الإسلامي دين الألفة والإئتلاف والإيلاف، وهو الموافق كل الموافقة على ترك التنافر والتدابر والتقاطع ونحو ذلك من كل ما يؤدي إلى الخلاف والعنف، ويعلم هذا كل من اطلع على ما كانت عليه سيرة الرسول عليه السلام، وسيرة خلفائه ومن اقتفاهم من الخلف الصالح رضوان الله عليهم، فإن من تتبع سيرهم الحميدة ونظر إليها بعين الإنصاف يشاهد ما تقر عينه به ويدعوه بداعية العناية إلى التمسك بحبله المتين، ويزداد به المومن إيمانا كل حين.

وإني لمسرور غاية السرور بحضور فرد من أفراد العقلاء الجلة الفرنسيين الذي طالعوا السيرة المحمدية فكانت السبب الوحيد في اعتناقهم الإسلام، أخص بالذكر هنا أخانا المحترم مسيو ديني الفرنسي الذي أسلم أوائل الشهر الجاري، ولقب بناصر الدين، وإني أهنيه في مجمعنا هذا بما منحه ا من هذه المنحة التي وصل إليها بنور التوفيق في النظر للحق، من غير التفات إلى ما يشيعه عن الإسلام أعداء الدين المشوهين لسمعة الديانة الإسلامية، جهلا منهم أو بغضا وإلحادا، أو تبعا لما اقتضاه نظرهم حين نظروا إلى أحوال بعض المنتهكين لحرمة الدين الإسلامي، ويزعمون أنهم من المتدينين، وهم في الإسلام دخلاء، ولو نشأوا فيه ونشأت فيه آباؤهم.

إخواني المومنين : إن ارتكاب ما يخالف الدين يفضي إلى ما لا تحمد عقباه، خصوصا عند من تربوا في الإسلام وكان آباؤهم وأجدادهم من المسلمين، فإن العار كل العار عليهم في التظاهر بمظهر غير المسلمين، بما تسوله لهم نفوسهم، مثل تعاطي الربا، والله يقول : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مومنين، فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله(18)، ومثل تناول أم الخبائث وشربها، وتعاطي القمار الذي لا يتجاهر به إلا غير المومنين، والله يقول : "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجز من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون"(19)، ومثل الإنتقاد على الصوفية بالتضليل والتكفير، ومعاداتهم تبعا للهوى بدعوى الإنتصار للكتاب والسنة، والنبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ربه تبارك وتعالى قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولإن سألني لأعطينه، ولإن استعاذني لأعيذنه، فنسأل الله تعالى من فضله أن يوفقنا لما فيه رضاه، ويسلك بنا وبكم مسالك النجاة إلى يوم لقاه، وقد حبب إلى أن أنشدكم هنا أبياتا أنشأتها في الحث على تعلم العلم والصنائع، والسعي إلى نيل المنافع، ونصها :

أقصى منى الشخص أن يكون مخدوما	فكيف ينجح وهو راح مذموما
من لي بشخص بحظ الشخصيات رمى	ورام نفع عموم كان مغموما
فقد أضرت بنا أغراضنا ونرى	إعراضنا عن مديد الخير منقوما
يا قوم هل تسمعون إن نصحت لكم	والنصح أضحى من النصاح ملغوما
يا ليت قومي قاموا من سباتهم	واستنهضوا هِمما تسر مهموما
فليس ينفعهم سوى اتحادهم	مع اتخاذهم المجهول معلوما
أقول قولي لم أعتب على أحد	وربما صرت فيما قلت مشتوما
ويلي عليكم وويلي منكم فلقد	كلمتكم وفؤادي صار مكلوما
لا تعجلوا في طلاب كل حقكم	مادام جانبكم بالجهل مهضوما
فكل من رام شيئا قبل أزمنه	فإنه لايزال منه محروما
والجهل جيش بغى بمن به اتصفوا	وقد طغى الجهل حتى صار مخدوما
ويلي عليكم إذا عشتم بجهلكم	وقد شربتم شراب الجهل مسموما
وأظهر الكل ما قد رام من خور	به غدا ظالما وكان مظلوما
فنبهوا قومكم لنيل معرفة	فقد غدا جهلنا يا قوم معلوما
ماذا يعوقكم عن التعلم في	زمانكم وسواكم صار منهوما
ما كاد يشبع من علم ومن عمل	وإن غدا من عظيم الكيد محموما
وإن تعليمكم خير لكم ولهم	وصار في حقكم والله محتوما

---

(18) سورة البقرة، الآية : 279.
(19) سورة المائدة، الآية : 90.

وإن جهلكم لو يعلمون لـهـــــــم … شؤم ولا خير فيمن كان مشؤومــــا
سيروا قواما بلا خلف لمقصدكــــــم … مع اتحاد بجمع عد مـنـظـومــــــا
فنظموا شركات في تجارتكــــــم … ولا تطيلوا قعودا كان مذمومــــا
ولتخرجوا كنز أرضكم لتنتفعــــوا … بما تضمنه إذ صار مـردومــــا
وزاحموا غيركم بكل مختـــــرع … لنيل خير لهم قد صار مضمومــــا
ونظموا لبنيكم خير مـدرســـــة … إن المدارس تعلي العرب والرومــا
من المحال رقي القطر بينكـــــم … إن لم يكن في بنيه العلم ملزومــــا
هذه المصانع تدعوهـم ليكتسبــوا … منها صنائع خير صار مفهومــــا
قوموا لإحراز ما ترضاه دولتكـــم … أولا فمجدكم قد صار مـهـدومـــا
إن يرفقوا بكم فالرفـق ينفعهـــــم … ومن غدا راحما يصير مرحومـــا
يسقي بمثل الذي يسقي سواه بـــه … كأسا دهاقا بما يراه مـخـتـومـــا(20)

---

(20) هذه واحدة من عشرات القصائد التي دعا فيها العلامة سكيرج رحمه ا إلى العمل الجاد على تحصيل العلم والإهتمام بالصنائع وتطويرها حتى تواكب الركب العالمي الجديد، ويعد العلامة سكيرج وبدون منازع أول مواطن مغربي نادى بضرورة عصرنة الصناعة المغربية وإدخالها ضمن قوالب تعليمية للرقي بها بين مصاف الدولة المتقدمة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الرؤية البعيدة التي كانت تتمتع بها شخصية هذا العالم المفكر الكبير.

ولا ننسى أنه كان يعيش في فترة تعددت فيها تحديات التكنولوجية الغربية المتطورة لدرجة مذهلة، وقد وظف الإستعمار مرارا هذه التكنولوجية لأهداف منافية كثيرة، منها مجال التبشير، حيث استعملها كأداة لتحطيم معنويات الناس، وتحسيسهم بعدم جدوى المناهج التعليمية المتبعة بالقرويين ما ولاها، وكان لهذا التحسيس أثر سيء في نفوس الكثير من المغاربة، كما تولدت عليه عدة توجهات متباينة في نطاق معالجة الموضوع، مما أدى إلى وقوع نوع من الإحباط لدا الكثير من الشيوخ والأساتذة والطلبة المهتمين.

وفي الختام أشكر السادة الذين اقترحوا علي إلقاء هذه المسامرة، مع الشكر التام لحضرتكم أيها السادة الحاضرين، مع الدعاء لأميرنا مولانا يوسف أدام الله نصره، قاله وكتبه بمدينة الجزائر الغراء، خديم العلم والعلماء، أحمد سكيرج لطف الله به آمين. وفي يوم الخميس 22 جمادى الأولى عام 1346هـ موافق 17 نونبر سنة 1927م.